الأمي الذي أصبح دكتوراً

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}

أعجبت كثيرا بكفاح هذا الرجل الذي يسر له الله أن يرتفع إلى مصاف الذين يعتد بهم بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وأهيب بالكسالى المتقاعسين أن ينهجوا نهجه وقد لخص هذا الرجل كفاحه فيما يلي:

"الجهل ما ألده من عدو.. إنه العدو اللدود الذي يفتك بالشعوب ويشتت خيراتها.. إنه آفة الشعوب ومخدر طاقاتها.. إنه الوحش الكاسر.. ولو كانت قوة الجسم وبروز العضلات تقضي عليه لكنت منذ سنين عديدة قد قضيت عليه.. ولكنني ما زلت ألبس رداءه الحالك السواد.. يطاردني في كل ثانية من ثواني حياتي في البيت.. في الشارع.. مع الأصدقاء في كل ناحية حتى عند وقت الهجيع إلى النوم.. لقد أذاقني العلقم وجعل حياتي ظلاما دامسا لا أتبين طريقي من خلاله.. انتقلت من مكان لآخر أتلمس طلب العمل لأعيش ويعيش من يضمني معهم بيت واحد ويظلنا سقف واحد ولكن محاولاتي باءت بالفشل في أيامها الأولى وذلك لجهلي التام الذي يطلقون عليه– تأدبا– (الأمية) وأخيرا بعد طول عناء ومشقة قبلت في إحدى الشركات كفراش براتب زهيد.. اعتقدت أن مشكلتي قد انتهت وأن الشبح الذي كان يلازمني قد انتصرت عليه.. لكنه ما زال يخيم على حياتي ويكدر صفوها.. فقد عانيت منه الكثير حتى وأنا أتفيأ ظلال عملي الجديد فكم من المرات جرحت كرامتي بكلمات لاذعات بسبب هذا الجهل..

ولكن هل استسلمت ورضيت من الغنيمة بالإياب؟!! لا.. لقد بيت أمرا وعزمت على تنفيذه ولم تزدني تلك المعاملة وذلك الوضع (المزري) إلا إصرارا على تنفيذ ذلك الأمر إنه التعليم.. فقد التحقت بالمدارس الليلية لمواصلة تعليمي والالتحاق بركب العلمِ وهكذا كنت (كاد ا)كادحا بالنهار ساهرا مجدا بالليل.. وهذه هي خطوات حياتي الأولى.. وبدأت أشق طريقي عبر هذا الطريق الشاق الشائك.. أذكره لك كي تعلم كم عانيت في السنين الماضية من جراء أميتي وكم تحملت من لذع الكلام وسيء التصرف بسبب هذا الكابوس. إن الجهل – يا صديقي– ثوب أشد سوادا من الليل.. إنه الموت البطيء والحياة المسلوبة.. ولكن لكل عقدة حلا ولا بد لليل من نهار يجلي سواده..

أنت تراني الآن على خير حال فقد بلغت في المنصب علوا وفي الجاه منزلا كل ذلك بفضل الله تعالى ثم بقوة عزيمتي وصدق نيتي.

هذه بدايتي مع معترك الحياة.. فلم أرس على الشاطئ إلا بعد أن تقاذفتني الأمواج حتى كدت أن أغرق.. ولم تأت هذه الشهادة التي أنا أحملها (الدكتوراه) من فراغ .. وليست هذه البحوث والمؤلفات المنشورة باسمي إلا عصارة تلك الأيام..

إنه لشيء عجيب غريب أثار اندهاشي وحرك مكامن الفضول في نفسي لتسأل الكثير.. ولكن أكتفي بما سمعته ففيه الكفاية ولا يسعني وأنا أسمع ملحمتك هذه مع الحياة ونصرك المؤثر على نكبات الدهر إلا أن أهنئك وأشد على يدك وأدعو لك بالخير والسداد فنعم الرجل أنت..

نهض مسرعا وقال: أرجو أن تأذن لي بالانصراف..

مع السلامة..

لقد تصدع رأسه بما سمع ونهض مسرعا موليا رغم كلمات الإعجاب التي قالها .. إنه لا يكاد يتصور هذا المشوار المفروش بالشوك فتجربته مع الحياة كانت وما زالت غير ذلك.. والاتكالية التي عاشها وجعلته لا يعرف من الحياة إلا هذه البحبوحة التي يعيش فيها أنكرت عليه صدق قولي عن الحياة ومشواري. ولكن الفرق كبير والبين وأضح بين من يبني مجده وحياته بيده وبين من يتكل على يد غيره لتبني له ربما الحنان أو العطف أرغماها على ذلك.. ولكن النتيجة ستكون كمثل هذا.. جهل.. ولكنه يرتدي ثوبا براقا يخفى خلفه معالم الجهل الحقيقي وهذا الجهل أشد وبالا وأعظم وطأة من ذلك الجهل.. لأن الواضح المرئي.. لا كالمتخفي خلف كواليس تبرق في عين الرائي فتقلب له الحقيقة خيالا.

(المدينة)